قاسم فلاته..الهروب الجميل

من أسوأ عادات الطالب السعودي في الخارج هو حرصه على الإقامة في مبنى أو حي يمتلئ بأبناء جلدته. فمن يصل أولا يقوم بالتسويق والحجز لمن سيأتي لاحقا. وسرعان ما يكتظ المبنى والحي بالسعوديين وعوائلهم. ويتحول العديد من الشقق المتجاورة إلى ديوانيات للعب الورق، ومجالس للنساء.

يشير الدكتور قاسم محمد فلاته (٣٧ عاما)، الحاصل أخيراً على درجة الدكتوراه في تخصص الهندسة واللدائن والخلائط المعدنية، في جامعة «نيوكاسل» في المملكة المتحدة، إلى أن انتقاله من حي الباوزدن- تقطنه نحو ٧ عوائل سعودية- إلى حي الرايدل رود في نيوكاسل، الخالي تقريبا من الجاليات العربية أسهم في فهمه للثقافة البريطانية وانغماسه في المجتمع

obeikandl.com

الإنجليزي. يقول: «كان الأمر صعبا بالنسبة لي وزوجتي في البداية. فقد كنا مستمتعين بجوار أبناء جلدتنا». لكن تضحية فلاته وعائلته آتت ثمارها. فقد أنجز رسالة الدكتوراه قبل ١١ شهرا من موعدها. وأتقنت زوجته عائشة (٣٠ عاما)، وأبناؤه سلمى (١١ عاما)، وعبدالإله (١٠ سنوات)، وسمية (٥ سنوات) اللغة الإنجليزية في فترة وجيزة. وأضحى فلاته لا يهدر أي فرصة تجمعه مع أي مبتعث جديد ليقول له: «لا تسكن بجوار من يتكلم لغتك الأصلية».

لم يكن الأمر سهلا بالنسبة لفلاته وأسرته الصغيرة في التكيف مع الحي الجديد الذي نزحوا إليه، وحققوا فيه فيما بعد مكاسب عديدة، فقد عانوا نظرات الريبة والتوجس المبكرة التي حاصرتهم. يقول: «لكن تغلبنا عليها مع مرور الوقت».

يتذكر قاسم أنه كان يساعد جاره البريطاني الكبير في السن على حمل بعض أغراضه الشخصية من وإلى شقته المجاورة، كما كان يبتسم أمام جيرانه في الذهاب والإياب، ويبادر بالتحية ما جعله ينال ثقتهم وتقديرهم.

وأسهمت مبادرات فلاته في اختلاطه وعائلته بالبريطانيين واندماجه معهم بسرعة عكس أقرانه الذين يعيشون عزلة

اختيارية. كما أصبحت زوجته تفتتح الحوارات مع الجيران بعد أن كانت تخشى مواجهتهم. وابنه عبدالإله التحق بأكثر من نشاط لا صفي دلالة على ارتياحه وسروره.

انتقلت أيضا إليه وعائلته ثقافة تبادل البطاقات. فرغم المسافة القصيرة التي تفصله عن جيرانه، إلا أنه يستمتع وأسرته بكتابة الرسائل والبطاقات لهم. وتمتلكهم سعادة بالغة عندما يضعون البطاقات في صناديق جيرانهم البريدية. يقول فلاته: «لا أستطيع أن أصف لك سعادة أسرتي عندما نكتب أو نستقبل بطاقة تهنئة أو رسالة. نفتقد هذه الرسائل بشدة منذ أن عدنا إلى المملكة».

كما دفع هذا المناخ الصحي قاسم إلى المشاركة في إنتاج فيلم «الجسور»، الذي هدف إلى توصيل رسالة مفادها إمكانية التعايش السلمي الإنساني البناء بين الأفراد والمجتمعات بغض النظر عن الدين أو المذهب أو العرق أو اللون. وكذلك شارك في تدريس مادتي «علوم المواد»، و«الميكانيكا»، وعضوية لجنة تقويم أداء قسم الهندسة في جامعة نيوكاسل.

ويأتي حرصي على الكتابة عن تجربة فلاته في هذا التوقيت، التي هداني إليها زميلي وليد الهلال، إثر إعلان وزارة التعليم

العالي أخيراً عن دفعة جديدة من المبتعثين الذين سيتوجهون إلى دول متفرقة قريبا. ما يجعلني أدعو بصوت مسموع إلى ألا يقع هؤلاء في الخطأ نفسه الذي وقع فيه آلاف قبلهم، عندما نزحوا إلى الأسهل وخسروا سنوات مهمة في حياتهم دون أن يستثمروها إيجابيا.

لن أتفاءل وأطمح إلى أن يصبح الجميع مثل الدكتور قاسم، لكن لا أريد أيضا أن يعود إلينا شباب قضوا ست سنوات في لندن أو كاليفورنيا دون أن يستطيعوا كتابة فقرة سليمة باللغة الإنجليزية، كونهم أهدروا أوقاتهم في لعب الورق، والسهر.

نشر في يوم الجمعة ١٧ المحرم ١٤٢٨-٢٦ يناير ٢٠٠٧

obeikandl.com